

مآثر المرأة الجزائرية
خلال قرن من الاحتلال

الأستاذ: يمينه بشي

المقدمة

كانت المرأة منذ فجر التاريخ⁽¹⁾ وما تزال - محور نقاش وجدال بين أجيال مختلفة حول طبيعتها ودورها في المجتمع، وهل يحق أن تمنح لها حقوق الإنسان الكامل، أم هي دون ذلك؟ إلى غيرها من الأسئلة التي طرحت وما تزال تطرح في هذا المجال كما أن اختلاف الأجوبة يعود أساسا إلى طبيعة الرؤية التي تتحكم فيها جملة من الاعتبارات والمقاييس الاجتماعية السائدة هذا فضلا من الاتجاهات الفكرية التي تستجد في كل مجتمع وعصر، والظروف السياسية والاجتماعية والثقافية التي تحيط بها وتتحكم فيها.

وإذا ما عدنا إلى العهد الإسلامي الأول، عصر السلف الصالح فإننا نجد أن الإسلام قد فصل في هذه المسألة، وأوضح مكانة، ودور، وحقوق المرأة في المجتمع الإسلامي في نصوص قرآنية⁽²⁾ صريحة، وواضحة، ومؤكدة بأحاديث نبوية صحيحة⁽³⁾.

وقد عمل أسلافنا بها، وترجمت أفعالا في أرض الواقع كما تشير إليه المراجع العديدة، إلا أن الانتكاسة العامة التي شهدتها القرون الموالية للمسلمين في دنيا السياسة، والمجتمع، قلبت الأوضاع رأسا على عقب، مما أدى إلى تدهور أوضاع المرأة من جميع النواحي فأصبحت من جديد موضوع جدال ونزاع مفتعل.

كما أصبحت "قضية" في المحافل الدولية، إذ أنشأت لها "جمعيات

نسائية" خاصة تدافع عن حقوق المرأة، وتقام لها ندوات وملتقيات خاصة في كل أنحاء العالم.

ولاشك أن المرأة العربية - هي الأخرى - قد تأثرت بأصداء هذا الموضوع الذي حملته إليها رياح الغرب، إثر انفتاح عليه، وهذا مع ظهور الثورة الصناعية. فكان أن ظهرت في مختلف أقطار المشرق⁽⁴⁾ والمغرب⁽⁵⁾ العربيين، مع تفاوت زمني - طبعا - منابر تدافع عن - قضايا المرأة في المجتمع كما أسست لها مجلات نسائية عديدة تديرها، وتكتب فيها النساء اللاتي "أعتقن" الفكرة، وجعلن من الموضوع "قضية" من ضمن القضايا التي تناضل من أجلها الحركات النسوية.

وإذا ما عدنا إلى التاريخ الجزائري نستقرئ فيه وضع المرأة الجزائرية خلال هذه الفترة التي نشطت فيها الحركات النسائية في المشرق العربي، فإننا نجد أن وضع المرأة الجزائرية مختلف، وبعيد عن وضع هذه الجمعيات النسائية في المشرق العربي نظرا إلى العوامل مختلفة، لعل أهمها وضع المرأة الجزائرية في ظل الاستعمار الفرنسي، وأثر سياسته عليها، فضلا عن العادات والتقاليد البالية التي ما تزال تسيطر على المجتمع، وتتحكم في آليته، إضافة إلى الجهل الذي أطبق على العامة من الناس، مما أدى إلى جمود فكري، وثقافي عام، استوى فيه الرجل، والمرأة على حد سواء، وفي غمار هذه

الظروف الصعبة، لا يمكن للمرأة الجزائرية إلا أن تطالب آنئذ المستعمر حقوقها وكرامتها التي سلبها إياها وفي سبيل حصولها على هذه المطالب الأولية كان عليها أن تتحلى بالصبر وتتحمل كل الظروف والمعاناة التي فرضها عليها الاستعمار، حتى تعبر إلى الضفة الأخرى ضفة الأمان والحرية والاستقرار...

وقبل هذا علينا أولاً معرفة وضعيتها السياسية تحت حكم الاستعمار الفرنسي ذلك ما سيعالجه المبحث الأول من هذا البحث.

الوضعية السياسية للمرأة الجزائرية

لا شك أن الدارس الذي يريد أن يكون صورة واضحة المعالم عن الوضعية العامة للمرأة الجزائرية المسلمة خلال فترة الاحتلال يستوجب عليه العودة إلى دراسة، وتقصي الأحداث التاريخية التي مر بها المجتمع الجزائري، ما بين 1830 و 1925.

هذه الأحداث التي كان لها أكبر الأثر في التأثير على شخصية الفرد الجزائري المسلم سواء كان رجلاً أم امرأة.

ولا يخفى ما للأوضاع السياسية التي عاشتها الجزائر. والتي فرضتها إدارة وإرادة المستعمر من أثر على حياة المرأة الجزائرية في شتى مجالات نشاطها الاجتماعي، والثقافي وحتى العقائدي خاصة إذا ما علمنا أن هذه الفترة تميزت بالجمود والركود الفكري، وبذرة الوعي الوطني لما تجد بعد التربة الخصبة لاحتضانها. هذا بالإضافة

إلى خلو الساحة الوطنية من حركة إصلاحية واضحة المعالم، لتبث اليقظة والوعي في أوساط المجتمع، ولتزيح أخطبوط الجهل، والتخلف اللذين استفحلا خلال هذه الفترة، وهكذا فقد تضافرت كل هذه العوامل مجتمعة لتجعل دور المرأة الجزائرية في هذه المرحلة الأولى من الاحتلال دورا سلبيا⁽⁶⁾ لأن الشعور بالخوف على أطفالها، وعلى حياتها، كان يسيطر عليها، ويملاً حياتها بعدم الأمان والاستقرار بسبب سياسة البطش التي انتهجها المستعمر إزاءها.

وانطلاقا من هذه الوضعية المؤسفة، ورغبة في الاطلاع أكثر على الوضعية السياسية للمرأة الجزائرية نتساءل إلى أي مدى بلغت ممارسات المستعمر التعسفية اتجاه المرأة الجزائرية؟

لاشك أن الإجابة جلية من خلال موقف الاستعمار الفرنسي الذي انتهج سياسة التدمير، والتقتيل الجماعي، أما أول وطئت أقدامه هذه الأرض. إزاء كل من يقف في طريقه تحقيقا لهدفه المنشود، وطبعا كانت المرأة الجزائرية جزءا من هذا الكل الذي كان يقف حاجزا لتحدي شراسة المستعمر الذي لم يلتزم حتى بعهوده الرسمية، ولا بإمضاءاته عليها. إذ أنه رغم معاهدة " اتفاق الجزائر " ⁽⁷⁾ التي أبرمت بين الجزائر وفرنسا إثر الاحتلال وما تنص عليه مادتها الخامسة من احترام كامل للمرأة الجزائرية، إلا أن المستعمر داس على كل العهود والقيم ومارس على هذا الشعب مختلف الأساليب

الدالة على وحشيته، وهمجيته التي أكدتها تقارير لجان رسمية، بخطط قادتها الذين يؤكدون بأنفسهم على صحتها، فهذا تقرير يصف فيه أحد القادة كيفية توزيع الغنائم الحيوانية، والبشرية بين الجنود وكيفية ارتزاقهم بحلي المرأة الجزائرية بعد قتلها.

يقول التقرير أن كل الماشية قد بيعت إلى قنصل الدانمارك، وعرض باقي الغنيمة في سوق باب عزون" حيث كانت أساور النساء محيطة بمعاصم مقطوعة، وأقراط تتدلى من قطع لحم أدمي، وقد بيعت بهذه المصوغات، ووزع ثمنها على ذابحي أصحابها، وفي ليل ذاك اليوم أصدر البوليس أوامر إلى أهل المدينة بإضاءة أنوار حوانيتهم علامة على الابتهاج... (8).

ولا أدل على سياسة التقتيل الجماعي، والبطش، والدمار التي انتهجتها فرنسا إزاء الجزائريين عامة، والمرأة خاصة من موقف "بيجو" (9) « Bugeaud » صاحب سياسة الأرض المحروقة للوصول إلى الهدف، إذ كان يأمر جنوده ليخلقوا جوا من الرعب تستحيل فيه الحياة المادية للجزائريين من حرق للمحاصيل الزراعية، وحجز للنساء والأطفال، إما كرهائن، وإما للبيع للحصول على الخيول، وخنق قبائل كاملة في الكهوف، ومناظر الرعب والهلع... (10).

وليس هذا فحسب بل وصلت وحشية فرنسا إلى حد عرض المرأة الجزائرية في سوق النخاسة للارتزاق بها، ولتبادل السلع كما حولت

إلى حيوان لحمل الأثقال فهذا الكولونيل "ديمونتيك" Demontiaque يجيب في رسالته إلى الجنرال "لاموريسير"⁽¹¹⁾ Lamoricière عن مصير النساء اللاتي أسرن قائلًا: "إننا نحتفظ ببعضهن كرهائن، ونستبدل بعضهن بالحياد، ثم نبيع الباقيات منهن بالمزاد العلني، باعتبارهن حيوانات لنقل الأحمال..⁽¹²⁾

وقد بلغ تعسف المستعمر في اضطهاده للمرأة الجزائرية درجة أنه يحاكمها أمام المحكمة القضائية لمجرد أنها شوهدت وهي تحتطب حزمة من الحطب في الغابة، بل كان يسجنها ويرهقها لدفع الضرائب تكفيرا عن فعلتها...⁽¹³⁾.

ومن خلال هذه الممارسات المتعسفة التي عانت منها المرأة الجزائرية، نستنتج مدى اضطهاد المستعمر لها، هذا فضلا عن سياسة التقتيل والتدمي، التي مارسها المستعمر على المرأة الجزائرية كما أنها تعرضت أيضا للإهانة في كرامتها وشرفها، وللاعتداءات المتكررة من جنود الجيش الفرنسي، وهذا بشهادة بعض المؤرخين الأجانب أنفسهم الذين ذكروا بموضوعية بعض الحقائق التي تبين مدى انحطاط سلوك الجيش الفرنسي الذي يزعم أنه جاء بالحضارة والمدنية ليغرسها في تربة شمال إفريقيا، والجزائر على وجه الخصوص وهذا أجرون "Ageron" يتحدث عن هؤلاء الجنود واصفا

وحشيتهم قائلًا في معاملة المرأة.

"إن النساء اللاتي كن يقعن في أيدي هؤلاء الجنود لا يستطعن أن يهربن من قدرهم المحتوم..." ويضيف قائلًا "إلا أن العرب كانوا يحاربون بضراوة أشد لأجل الدفاع على شرف نسائهم..." كما يصف المؤرخ نفسه سلوك بعض العساكر و هم يتعاركون من أجل نيل فتاة جميلة، قطعوا ملابسها، وكل واحد منهم يريد لها لنفسه، وفي آخر المطاف وبعد أن قضي عليها.. سلمت إلى قاضي أقرب مدينة...⁽¹⁴⁾.

هكذا كانت معاملة المستعمر للمرأة الجزائرية المسلمة، وهكذا نظرت إليها، تلك النظرة التي لا تتم سوى عن الحقد، والكراهية، وإرادة الدمار لهذا المخلوق الضعيف الذي توالى عليه المحن من خلال كل ما كان يحيط به من ظروف وعوامل إلا أنه رغم كل هذه المعاناة، والمأساة فقد ظل هذا المخلوق الضعيف صابرا صامدا، لم يستسلم لهذا الوحش المدمر، وهذا ما سجلته في سجل تاريخ الجزائر العديد من الثورات، والانتفاضات التي شارك فيها كل من الرجل والمرأة على حد سواء في مختلف مناطق الوطن، وليس هذا فحسب بل كانت المرأة الجزائرية دوما تحت زوجها على محاربة العدو، وتشير فيه روح حب القتال في سبيل الله، للدفاع عن كرامته، وعرضه، وكان الموت لديها أهون من أن يهزم زوجها في القتال...⁽¹⁵⁾ وهذا ما يدل على رغبتها الشديدة في القضاء على هذا المستعمر رغم ضعفها

وقلة حيلتها أمام بطشه ووحشيته.

وهكذا نلاحظ أنه رغم الظروف السياسية الصعبة التي كانت تعيشها المرأة الجزائرية من بطش وتقتيل واعتداء إلا أننا لا نعدم بروز بعض النماذج النسائية أمثال "لالا فاطمة نسومر" (1830-1863)⁽¹⁷⁾ التي ما تزال ذاكرة التاريخ ونشهد لها بشجاعته، ومقاومتها المستعمر في العديد من الثورات في جبال جرجرة ببلاد القبائل ومشاركتها بعض القادة الجزائريين في حروبهم ضد العدو الفرنسي مثل حركة⁽¹⁸⁾ الحاج عمر، والسيد فاطمة نسومر ما بين (1830-1863).

ورغم ما عرف عن وضعية المرأة الجزائرية سياسيا تحت حكم الاستعمار، فإن كتب التاريخ، والأدب قد سجلت دور المرأة الجزائرية. وآثرها الذي لا يمكن إنكاره فقد تجلت صورتها في أشعار الأمير عبد القادر، حبيبة، وزجا، وأما، وتراءت فارسة، وخطيبة...⁽¹⁹⁾

وبهذا نخلص إلى القول، بأن المرأة الجزائرية رغم ضعفها، ومعاناتها من اضطهاد المستعمر، وهذا من خلال المواقف والممارسات التعسفية التي عرض لها فيما تقدم، إلا أنها صبرت، وصمدت، واستطاعت بحسها وبطريقتها الخاصة -كامرأة- أن تثبت أمام عواصف الاستعمار إلى حين تسترجع كرامتها، وأرضها... لأنها قبل كل

شيء تمثل هذه الأرض وكرامة هذا الوطن...
وبعد إطلاعنا على الوضعية السياسية للمرأة الجزائرية ، فما هو حال
وضعيتها الاجتماعية يا ترى؟ ذلك ما سنتناوله الصفحات القادمة من
البحث.

2 -الوضعية الاجتماعية للمرأة الجزائرية

إن الباحث المتصفح لبعض المراجع التاريخية⁽²⁰⁾، لا شك انه سيدرك أن الوضعية الاجتماعية للمرأة الجزائرية ما بين 1830-1925، لم تكن أحسن حالا من وضعيتها السياسية التي كان لها أكبر الأثر على حياتها ككل، ومن جملة ما تذكره هذه المراجع الحوادث التي ألمت بالجزائر من محن وآفات، وسنوات جفاف، ومجاعة⁽²¹⁾، وفقر، وأمراض فتاكة أتت على ما يقارب المائتي ألف نسمة أو أكثر⁽²²⁾، إضافة إلى أحكام الأندجينا⁽²³⁾ التي كانت ترهق كاهل المواطن الجزائري، وتزيد من معاناته.

ولا يخفى ما لهذه الآفات الاجتماعية من اثر وانعكاس سلبي على حياة المرأة الجزائرية تحت حكم الاستعمار، فق عانت المرأة الجزائرية من الاحتياج وشظف العيش، بعد أن استولى المستعمر على أرضها، خيراتها، ودفع بها، وبزوجها إلى البحث عن عمل لدى المعمرين أو في بيوت "الكولون" خادمة بأجر زهيد لتسد حاجياتها، وحاجيات أطفالها، وفي أحيان كثيرة كانت تضطر إلى بيع كل ما تملكه من متاع، وحلي -عن وجد -لسد نفقات البيت في حالة وفاة الزوج، أو غيابه. وقد فرضت عليها الظروف الصعبة الخروج ن البيت للبحث عن عمل.

وهذا تحقيق⁽²⁴⁾ أجري للبحث عن الوضعية الاجتماعية للنساء

الجزائريات العاملات وللكشف عن ظروفهن المأساوية، إذ يشرح أسباب خروجهن للعمل في ظروف جد شاقة كما يبين لنا هذا التحقيق مدى البؤس الاجتماعي الذي كانت تعيشه المرأة الجزائرية، وأثر ذلك كله على حياتها، وعلى أسرتها، وأطفالها. بالإضافة إلى هذا يصف التحقيق الأعمال⁽²⁵⁾ الشاقة التي كانت تقوم بها المرأة خارج البيت ولو كلفها ذلك العمل اجتياز عقبات شتى... فالمهم لديها أن هذا العمل يعنيها على توفير قوت أطفالها. ويشير هذا التحقيق إلى أن أغلب هؤلاء النسوة هن أرامل، أو زوجات مطلقات يعشن ظروفًا اجتماعية صعبة، ورغم ذلك فلا تجد منهن من تشتكي من قلة المرتب، وإنما من قلة العثور على العمل. ويختتم هذا التحقيق بتعليق في الأخير قائلاً: "...لو منح لهؤلاء قليل جدا من المساعدة لكانت كافية لإزاحة البؤس عن نسبة لا بأس بها من النساء اللاتي من أجله يعاركن الحياة..."⁽²⁶⁾.

وقد استغل رجال الدين⁽²⁷⁾ الذين جاءوا إلى الجزائر لنشر الدين الجديد -على حد زعمهم- فاقة، واحتياج المرأة الجزائرية، وبؤسها الاجتماعي لتتصيرها بشتى الوسائل وكان على رأسهم الكاردينال "لا فيجيرى" ⁽²⁸⁾ "Lavigerie" الذي استغل المجاعة التي أصابت الجزائر عام 1967، لأجل تنصير أبناء، ونساء الجزائر، وذلك بتقديم لقمة العيش السامة لهؤلاء البؤساء الذين فقدوا العون والسند.

وكان رأيه في ذلك "الصليب في يمينه، والخبز والدواء في شماله"⁽²⁹⁾. ورغم محاولات التنصير فان المرأة الجزائرية طلّت في الأغلب الأمم محافظة على تقاليدها. وعاداتها، ومقومات شخصيتها الوطني وانتمائها الحضاري وهذا ما أدى ببعض الكتاب الأجانب إلى اعتبارها مصدرا، ورمزا لروح⁽³⁰⁾ المحافظة على العادات والتقاليد العربية الإسلامية المتواصلة بين الماضي والحاضر.

كما أثار موقف المرأة الجزائرية المحافظ أيضا، اندهاش، وتساؤل كتاب آخرين عن سبب عدم تأثر المرأة الجزائرية بالمرأة الفرنسية⁽³¹⁾ وبتحررها رغم احتكاكها بها في العمل طوال هذه الفترة من الزمن.

وإذا عدنا إلى الوضعية الاجتماعية للمرأة الجزائرية وحاولنا رصد مظاهر أخرى كانت سببا في تخلفها، نجد ظاهرة الانحراف الديني المتمثلة في الطرقية المنحرفة التي انتشرت في المجتمع الجزائري، وسيطرت على عقول العامة من الناس وكانت المرأة الجزائرية خاصة من بين الذين وقعوا فريسة سهلة بين أيدي هؤلاء المشعوذين، ويحكم طبيعتها الساذجة وجهلها أيضا كانت تعتقد أن هؤلاء هم أولياء الله الصالحين، تستجاب دعواتهم وحين يعتريها شعور بالعجز، أو الضعف إزاء بعض المشاكل، والمواقف الصعبة التي تواجهها في الحياة في الحياة ولا تجد لها حلا، وتلجأ إليهم، اعتقادا منها أن

لهؤلاء القدرة على المنح والمنع... ومكاشفة الغيب... فكان لهذه الثقة العمياء آثارها الوخيمة على حياتها، وعلى عقيدتها، حتى أصبحت محل انتقاد وسخرية، فهذا كاتب أجنبي يصف مدى تلق وشغف المرأة الجزائرية بهذه الاعتقادات فهي تتوسل بالتمائم والتعاويذ، والشعائر السحرية، والزيارات للقبب... وبالرقصات المقدسة التي تقيمها في البيت أثناء غياب الزوج، أو خفية عنه، لأجل طرد سوء الطالع، أو شفاء مريض...⁽³²⁾ ويضيف هذا الكاتب معلقاً أنه من أجل هذه الاعتقادات الفاسدة، يناضل المصلحون في الجزائر خاصة بعد الحرب العالمية الأولى لجعل المرأة الجزائرية دعامة للإسلام...⁽³³⁾.

وقد اهتم بعض الكتاب الأجانب بهذه الظاهرة اهتماماً ملحوظاً، إذ راحوا يرصدون نشاط⁽³⁴⁾ المرأة في ظل المنحرفة، ويسجلون تفاصيل مسهبة عن كيفية تلقينها "المذهب" للإتباع من النساء خلال من النساء خلال الاجتماعات التي كن يحضرنها، وغيرها من النشاطات⁽³⁵⁾ الأخرى التي كانت تمارسها المرأة تحت ظل رجال الطرقية المنحرفة.

ومن الكتاب الجزائريين الذين تصدوا لمثل هذه الظاهرة السلبية في المجتمع الجزائري في مطلع هذا القرن، نجد الكاتب عبد القادر المجاوي⁽³⁶⁾ الذي تعرض لهذه الظاهرة في كتابه "اللمع على نظم

البدع"، وبين مدى الأثر السلبي للطرقية المنحرفة على نفسية المرأة وعلى تصرفاتها في بيتها.

كما أورد الكاتب بعض الحقائق عن مظاهر الشعوذة التي انتشرت في المجتمع الجزائري والتي أصبحت تمارس وكأنها جزء من العقيدة الإسلامية برعاية الطرق الصوفية المختلفة.

فوصف ما يجري في حفل "الزار" ⁽³⁷⁾ من مظاهر الشعوذة، والدجل التي تمارس في هذه الأوساط وما هي في الحقيقة "... إلا فخاخ كيد تنصبها أيدي زعيماتها وشيخاتها لاقتناص أفراد العقيلات واستنزاف لدماء أموالهن إن كن مثریات، وفسادا لكريم أخلاقهن إن كن كاملات، وهتكاً لأعراضهن إن كن غائبات.. وما تباين الملابسات، وتغاير الموصوغات، وذبح الدجاج، ونحر التيوس إلا ذريعة توصل شيخات "الزار" الزعيمات إلى تأليف كتائب الأموال وحشد جيوش الثروة العظيمة وهي خرافات في أضاليل..." ⁽³⁸⁾

ويرجع الكاتب سبب هذا الانحراف العقائدي لدى النساء إلى التساهل، وغض النظر عن أعمالهن القبيحة، مما شجعهم على المضي في هذا السبيل، بالإضافة إلى جهل الناس واعتقادهم بما تدعيه وترعمه هؤلاء المشعوذات خاصة منهن الزعيمات اللاتي يدعين القدرة على شفاء المعلولين بداء الجن وكشف مخبآت الأمور والأنباء بالمجهول ... ⁽³⁹⁾.

وقد عكست بعض النصوص الشعرية في مطلع هذا القرن حيث بدأت فكرة الإصلاح تلوح في الأفق هذه الظاهرة الاجتماعية السلبية، إذ أخذ لشاعر يرصد مثل هذه الظواهر، محللاً، ومعللاً أسبابها، منذراً بعواقبها على المجتمع، ولعل أبرز قصيدة صورت هذه الظاهرة في مطلع هذا القرن قصيدة "المنصفة"⁽⁴⁰⁾ للشاعر محمد بن المولود بن الموهوب⁽⁴¹⁾ (1866-1939) التي تصور بحق، ما يجري في حفل "الزار"، من شعوذة ودجل نسائي، وما يعكسه هذا الحفل من جهل، وتخلف اجتماعي، وقد جاء هذا الوصف لحفل "الزار" في لغة بسيطة، سهلة، لا تتعدى مفردتها دلالاتها المعجمية، وفي أسلوب تقريرى مباشر في قوله:

إنا التابعون لكل وهم فسل عنا عبادتنا الجنونا
وسل "زارا" ونسر مسيد طبل وزينتنا تبيع التابعينا
وسل "السلاف في غراب" "وأعطار" تراق وعائميننا⁽⁴²⁾

وإحساسا بدور الشاعر في المجتمع، لا يملك الشاعر إلا أن يدعو هؤلاء إلى:

ألا يا قوم ما الإسلام هذا ودين الله رب العالمين
أتى الإسلام يأمرنا بعلم وسير في المنافع ما حيينا⁽⁴³⁾

وفي الظاهرة نفسها نجد قصيدة أخرى لشاعر بعنوان زفرات المفؤود الحيران على حالة الوطن "التي تجسد الوضع الاجتماعي للمرأة

الواقعة في أسر الطرقية المنحرفة.

وليس هناك سبيل لإنقاذها، بسبب جهلها المركب، مبينا أثر هذا الداء على الأسرة والمجتمع في أسف، وتحسر بالغ في قوله:

يا دهر يكفي، فالنساء تفرنجت وتبرجت ولرايهن
نئول

فربانهن لما وعدن تحتمت ولشركهن ترى الرجال تميل
وكذاك مأوى الساحرات يزرنه أبدا وليس لمنعهن سبيل
أولادهن بشكرهن تخلفوا والصالحات من النساء قليل
إن النساء كما الأفاعي فاحذروا سم النساء فمن لسعن قتيل
وإذا رأيت صريعهن فاحذرن كيد النساء فكيدهن جزيل
لولا الجهالة أقمت لرقيتمو رقي الشعوب و ما لذاك مثيل
(44)

تلك هي الوضعية الاجتماعية للمرأة الجزائرية في ظل الاستعمار التي أتسمت بالتخلف والتدهور نتيجة عوامل عديدة ذكرناها فيما تقدم (45).

وقد تجلى هذا الوضع الاجتماعي المختلف للمرأة من خلال عدة ظواهر سلبية، كالبؤس، والفقر، والتتصير، والطرقيه، والشعوذة... وغيرها من الآفاق الاجتماعية، والظواهر التي تعرض لها المجتمع الجزائري خلال فترة الاحتلال.

وقبل أن نطوي هذا المبحث نود ننبه إلى أن بعض الكتاب الفرنسيين حاولوا في كتاباتهم الأدبية ⁽⁴⁶⁾ والتاريخية إعطاء صورة بشعة بل مشوهة عن الحياة الاجتماعية للمرأة الجزائرية وهذا بذكرهم لحقائق غير موضوعية ووصفها بأنها لا قيمة لدورها في الحياة، وفي المجتمع الذي تعيش فيه، وكذلك خلو حياتها من هدف حقيقي... ⁽⁴⁷⁾

هذا فضلا عن بعض الكتابات الاجتماعية ⁽⁴⁸⁾ الأخرى الحاقدة على الإسلام، والتي أولت عناية خاصة بانتقاد أحكام الشريعة الإسلامية في القضايا الاجتماعية التي لها علاقة بالمرأة الجزائرية المسلمة، كقضية الزواج، والطلاق، وتعدد الزوجات، وغيرها... إلى جانب بعض الكتابات الأخرى التي تزوج لأفكار الاستعمار وحضارته... والتي راحت تزعم أن الحياة الاجتماعية للمرأة الجزائرية تطورت بفضل المرأة الأوربية التي جاءت لتدخل الحس الحضاري حياتها... كما جاءت فرنسا أيضا إلى الجزائر لتحضر وليس لتستعمر هذا الشعب، فهذه الدراسات لا تتوانى عن ذكر "محاسن الاحتلال" الذي بفضلها عرفت المرأة الجزائرية التطور في مجال الحياة الاجتماعية الحديثة في الصحة ⁽⁴⁹⁾ والتعليم وغيرها.

ولا يخفى ما تنطوي عليه مثل هذه الدراسات من نظرة استعمارية ⁽⁵⁰⁾ متعالية وعدم موضوعية حقائقها، لذا يبقى هذا النوع من الكتابات

عن المرأة الجزائرية في حاجة إلى تمحيص وتدقيق من طرف الباحثين⁽⁵¹⁾ وذلك لإجلاء الصورة الحقيقية للمرأة الجزائرية المسلمة للقارئ العربي.

وانطلاقا من الوضعية الاجتماعية التي عرضناها نتساءل كيف كانت الوضعية الثقافية للمرأة الجزائرية يا ترى ؟ذلك ما سيجيب عنه المبحث الموالي.

الوضعية الثقافية للمرأة الجزائرية

مما لا شك فيه أن الوضعية الثقافية للمرأة الجزائرية كانت أكثر تدهورا، وسوءا من وضعيتها الاجتماعية، و السياسية، ما بين 1830-1925.

وتدهور الوضعية الثقافية للمرأة الجزائرية، كان نتيجة لعوامل شتى "منها سياسة تجهيل الجزائريين التي فرضها المستعمر على الرجل والمرأة، إضافة إلى وضع الثقافة العربية الإسلامية في الجزائر المتدهور عامة، بسبب الموقف العدائي للمستعمر إزاءها. فقد سعى هذا الأخير منذ بداية الاحتلال إلى طمس، وتدمير كل معالم ومقومات لشخصية الجزائرية⁽⁵²⁾ ولهذا لا نستغرب وصف أحد المؤرخين الحياة الأدبية في الجزائر خلال الربع الأخير من القرن التاسع عشر بقوله: "...لا تعدو أن تكون بقايا بضاعة تكاد تكون كاسدة ...ويضيف قائلاً: "إن شعراء هذه الفترة حاولوا التجاوب مع

روح العصر لكن دون نجاح ملحوظ..."(53)

وليس هناك تعليل هذا الضعف والانحطاط اللذين وصل إليهما الشعر في تلك الفترة إلا بسبب ما كانت تعانيه الثقافة العربية في الجزائر من اضطهاد رهيب (54).

ولهذا نجد أن مفهوم الثقافة قد انحصر في مجال التصوف، كما انحصرت الأغراض الشعرية (55) في مجال المدائح الدينية البعيدة عن هموم الواقع المعيش آنئذ.

وقد نجم عن هذا الوضع الثقافى المتأزم انتشار الجهل، والأمية في الأوساط العامة التي مست كلا من الرجل والمرأة على حد سواء.

ومن الطبيعي جدا وسط هذه الظروف أن لا نعثر على فتاة أو امرأة مثقفة (56).

وإذا ما حولنا أن نتساءل عن طبيعة الوضع الثقافى بالنسبة إلى المرأة في إطار هذا الجو العام، فأننا نجد الجواب عند بعض الدارسين الذين أرخوا للحياة الثقافية لهذه الفترة فهم يرون التعليم الرسمي بالنسبة إلى البنت في هذه المرحلة نادر (57) بل يكاد يكون منعدما، ويؤكد هذه الحقيقة مصطفى بن لخوخة "قائلا: إن التعليم

الابتدائي عند المسلمين خاص بأطفالهم دون بناتهم، وعند الفرنسيين يشمل أطفالهم و بناتهم...⁽⁵⁸⁾ أما توفيق المدني فيرى أنه ليس هناك أدنى اهتمام بأمر البنات المسلمات في الجزائر، ما عدا فئة قليلة وجدت مقاعد في المدارس الحكومية، ولكن هذه الأخيرة لا تلقنهن شيئاً من العربية أو علوم الدين، لذا فكل البنات المسلمات مجبورات على الرضى بالجهل والأمية..⁽⁵⁹⁾.

أما إذا أردنا أن نبحث عن الأسباب والعوامل التي جعلت من الوضعية الثقافية للمرأة الجزائرية تتصف بهذه الصفة، فأنا نجد للمسألة أكثر من سبب، منها ما يتصل بالمجتمع وعاداته، وتقاليدها لمحافظة، ومنها ماله علاقة بالمستعمر، ومنها ما ارتبط بآراء بعض شيوخ الطريقة الذين كانوا يحرمون تعليم المرأة ويرون أنه "خروج عن الدين".

وإذا عدنا إلى التاريخ وحاولنا تقضي الحقائق أكثر فإننا نجد المستعمر الفرنسي قد فرض سنة 1883 قانون التعليم الإجباري على الأطفال الجزائريين، إلا أنّ رفض الجزائريين المستعمر، وثقافته جعلهم يحذرون من هذا القانون، بل ويعارضون إرسال أبنائهم إلى هذه المدارس الفرنسية، وخاصة بناتهم، لأن التقاليد الوطنية كانت تنظر إلى هذا التعليم الفرنسي، على أنه خروج عليها، وغزو للعائلة

الجزائرية التي بقيت محافظة على التقاليد⁽⁶⁰⁾ وأمام هذا الموقف الراض الذي وقفه الجزائريون إزاء الثقافة الاستعمارية، راح بعض المعمرين الفرنسيين يعللون هذا الموقف بأن عقلية الجزائريين تأبى التحضر والمدنية وترفض التقدم حتى بالجبر⁽⁶¹⁾.

كما أثار هذا الموقف سخط وتهجم بعض المؤرخين،⁽⁶²⁾ والكتاب الأجانب الذين راحوا يعللون أبعاد هذا الموقف الذي - حسب زعمهم - لا ينم سوى عن جهل هذا الشعب وتحلفه، وفي الوقت ذاته حاولوا أن يُبرزوا بوضوح في كتاباتهم الجهود المعتبرة التي بذلتها الدولة الفرنسية المستعمرة في سبيل تثقيف هذا الشعب، وهذا بفضل الوسائل التي سخرتها لهذا الهدف، كتأسيسها بعض المدارس للبنات لتعلمهن بعض الصنائع، ودفعها نفقات الأهل، وإطعامهن مجاناً، وغيرها من الوسائل التي سخرتها لهذا الهدف والمغريات التي توسلت بها لجلبنهن... و يصرح "ميليوت" "milliot" أنه رغم هذه الجهود المبذولة فإنّ النتائج بالنسبة إلى البنات خاصة كانت جدّ مخيبة ذلك أنّ الأهالي كانوا يرفضون ترك بناتهم لمواصلة الدراسة على عكس الذكور، نظراً إلى التقاليد التي كانت تعارض ذلك⁽⁶³⁾.

ويذهب الكاتب إلى أبعد من هذا الحد في تشنيع موقف رفض الأهالي لتعليم البنات الجزائرية الابتدائي والتربية الفرنسية، لا

يستطعن التزوج من أبناء جنسهن... وبصعوبة تتزوج من أوروبي بسبب التعصب الجنسي من طرف عائلاتهم، و ينتهي بهنّ المطاف إلى اعتزال المجتمع أو السقوط في الرذيلة⁽⁶⁴⁾.

وتحسباً من طبيعة التعليم الفرنسي، وما قد ينجم عنه من عواقب وخيمة على المجتمع الجزائري المسلم نستطيع أن نتفهم موقف الأهالي الجزائريين المعارضين للتعليم الفرنسي على وجه الخصوص، بالنسبة إلى البنت، وهذا تحسباً، وحيطة من انحراف البنت، أو انسلاخها عن المجتمع الجزائري المحافظ دوماً على عاداته، وتقاليده العربية الإسلامية.

وإذا حاولنا معرفة العوامل الأخرى التي ساهمت بدورها في تأزم الوضعية الثقافية للمرأة الجزائرية وإبقائها جاهلة، هذا فضلاً عن سياسة المستعمر ونوعية تعليمه الذي قوبل بالرفض من طرف الجزائريين، نجد سيطرة العادات والتقاليد البالية على عقلية العام من الناس، التي تمنع بل تحرم فكرة تعليم المرأة، هذه الفكرة التي كان يزكّيها بل يؤيدها بعض رجال الطرقية أنفسهم إذ يرون أنّ تعليم المرأة يؤدي إلى انحرافها و ليس هذا فحسب، بل نجد هذه الفكرة مهيمنة حتى على بعض المثقفين آنئذ، فنظرتهم إلى تعليم المرأة عامة لا تخرج عن هذا الإطار، وهي فكرة غير مستحبة، لأنّ

تعليمها سيؤدي بها إلى الانحراف و الفتنة.... حسب زعمهم، فهذا الأمير عبد القادر المعروف بثقافته الواسعة، يتبنى موقف عدم تعليم المرأة، و ذلك بحجة.. " أن الشرع الإسلامي قد نهى عن تعليم النساء الكتابة، لأنّ المرأة قد لا يمكنها لقاء من تهوى، فتكذب له، فتكون الكتابة سببا للفتنة..."⁽⁶⁵⁾.

وهكذا يبدو لنا واضحا أن الأمير في أواخر القرن التاسع كان مسائرا، ومطابقا تماما لنظرة المجتمع والعادات والتقاليد التي شاعت أن تحرم المرأة من التعليم.. لكن رغم ذلك يمكننا أن نرد على مثل هذا القول بأنه غير صائب وغير صحيح، لأنّ هناك سبل كثيرة للمرأة التي تريد أن تفسق.. فلا يمنعها جهلها من ذلك، فهناك من السبل لذلك ما لا يدركه المتعلّم، فلهذا نستغرب ما ذهب إليه الأمير عن اعتقاد خاطئ خاصة إذا علمنا ما تتمتع به هذه الشخصية من تبحر في العلم، والدين اللذين لا يشفعان له موقفه هذا إزاء تعليم المرأة.

وكان من نتائج الجهل الذي غرقت فيه المرأة أن أصبحت فريسة طيعة للمشعوذين والمحتالين، إذ احتلت الخرافات والبدع، والاعتقادات المضلّة مكانا واسعا من عقلها مما كان له الأثر السلبي على عقيدتها، وحياتها العامة، فكلّما اعترتها معضلة في

حياتها، ووقفت عاجزة عن حلها لجأت إلى هؤلاء الدجالين من النساء والرجال، وقد أوضح بعض الكتاب خاصة المصلحون⁽⁶⁶⁾ الذين برزوا في هذه الفترة خطورة عواقب هذه الظاهرة التي تفشت في المجتمع سواء على المرأة أم الأسرة الجزائرية، و من بين هؤلاء نجد في أواخر القرن التاسع عشر بروز صوت الكاتب المصلح، مصطفى بن خوجة⁽⁶⁷⁾ الذي أوضح عواقب ونتائج ترك المرأة الجزائرية تتخبط في الجهل قائلاً: "وبالجملة فإن جهل النساء ليهوي بهن في مهاوي مخيفة، ويجرهن إلى مفاسد كثيرة، و يحملهن على الاعتقادات الفاسدة كإتخاذ أدوية للحمل، وتمام المحبة، والتقرب إلى الجن، والإستعانة بهم في الشدائد، والتشاؤم بأشياء لا تملك نفعا ولا ضرا... وزيادة الدجالين من رجال و نساء بقصد أن يسألنهم عما يتعلق بأمر الزواج والطلاق والحبل والأنباء بالغيب وهذا من الكفر الصريح، ولو كن متصفات بالعلم والفضائل، لما أضعن أموالهن على أمثال ما ذكر...⁽⁶⁸⁾ وقد حلل الكتاب أسباب ونتائج هذه الظاهرة السلبية كما أوماً إلى العلة في انتشار هذه الظاهرة قائلاً: "... ولكن لولا جهل الرجال وغباوتهم لما وصلت النساء إلى هذه الدرجة من الجهل والزيغ والضلال، كالاستفهام عن المغيِّبات، والاستشفاء والتبرك بأرباب الجنون، والفسوق، والفجور وتقديم النذور لهم من الذبائح، والشموع، و البخور مع أن ذلك ولو لضرائح الأولياء الكرام

باطل وحرام بالإجماع... (69).

و هكذا يبدو لنا واضحا من قول الكاتب "مصطفى بن خوجة" أن مسؤولية جهل المرأة يتحملها الرجل و الزوج خاصة فهو في نظر الكاتب المسؤول الأول عما يصدر عن المرأة من تصرفات جاهلة غير حميدة، لأنه رضي بأن تبقى جاهلة، ورضخ للعرف الاجتماعي السائد الذي يزعم بل يعتقد أن تعليم المرأة فيه "فساد وخراب" فكانت النتيجة خراب عليه - أي الرجل - وعلى المجتمع، فلو تعلّمت المرأة و تفقّهت في دينها كما أمرت بذلك الشريعة الإسلامية لما انحرفت عن عقيدتها. ومن أثار جهل المرأة أيضا، وعواقبه السلبية على حياتها الزوجية، ما يبدو واضحا في قصيدة "الزواج التاعس" (70) الذي سجّل فيها الشاعر وبكل وضوح - في مطلع هذا القرن - بعض الصّور الاجتماعية السلبية، التي انتشرت في المجتمع الجزائري. كما تكشف لنا بعمق نتائج جهل المرأة على الحياة الزوجية المضطربة التي لا تعرف الاستقرار، نظرا إلى المشاكل التي تواجهها، كما نستشف من هذا النص الشعري أنّ طبيعة هذه المشاكل الزوجية مردّها إلى جهل المرأة الجزائرية. التي عاشت في الجهل وأصبحت "زوجة، وأما" تدير بالجهل حياتها وحياة زوجها وأطفالها، مما انعكس سلبا على حياتهم، فجهلها يوقعها -

طبعا - في كثير من الأخطاء التي قد لا يغفرها لها الزوج خاصة،
والتي لم تقدّر لها المرأة حق قدرها.

فقصيدة "الزواج التاعس" نموذج لصورة الواقع الاجتماعي المتخلف
الذي تعيشه المرأة الجزائرية، إذ حاول الشاعر من خلال الحوار
القصصي بين الزوج و الزوجة أن يجسد لنا هذه القصة الاجتماعية
التي وقعت بين زوجين، و من خلالها ينتقد الشاعر صورة المرأة التي
تخرج من بيتها لتبدّد وقتها في زيارة الأولياء، وتهمل في المقابل
مسؤولياتها، وشؤون بيتها، وزوجها، وأولادها، وهذا لجهلها، ولعدم
وعياها بدورها كربة بيت وزوجة و أم لأطفال ينتظرون عودتها، وفي
أضواء النص نستشف فكرة الشاعر الإصلاحية التي تؤكد على أن
نتائج جهل المرأة في آخر المطاف يتجرعها الزوج، وتنعكس عواقبها
على المجتمع كله.

و يبدأ الشاعر في سرد القصة على لسان الزوج شاكيا زوجته
لأهلها، مفصلا أسباب هذه الشكوى في قوله.

لهدف نفسي على فتى ذي إباء	من فتاة قبيحة حسناء
خرجت في الصباح سلمى	من البيت و عادت إليه عند المساء
فأتى زوجها سليم و لما	لم يجدها قامت بصنع العشاء
و رأى البيت مثلما كان في	الصباح زربا مبعر الأشياء

سَاءَ فعلها فأغلط في القو ل لسلماء هذه الحمقاء
فأصرت على العناد ولم تر جع للحق وانبرت للبذاء

إلى أن سبب الشكوى، و معاناته من هذه الزوجة المهملة لزوجها
ولأطفالها، فلا هم لها سوى زيارة الأولياء في قوله متحسرا، متذمرا:

فأتى أهلها فقص عليهم زوجها سوء فعلها باستياء
قال: شكواي أن سلمى تناست ما عليها من واجبات النساء
ترك البيت مهملا لا تبالي لا بزوج بها ولا أبناء
وغدا جئت في النهار لشيء قيل لي في زيارة الأولياء
انظروا في الأثاث أو في مكان ال نوم أو في الطعام أو في الماء
تجدوا الكل في القذارة مثلي غير أني أفوقها بشقاء⁽⁷¹⁾

ولا يتوقف الأمر عند الأثر السلبي الذي تتركه الطرقية على حياة
المرأة الزوجية وعلى استقرارها العائلي فحسب، بل يمتدّ الأثر
السلبي على الأبناء أيضا مستقبل هذه الأمة كما يؤكد الكاتب
المصلح "عمر بن قدور الجزائري"⁽⁷²⁾ الذي راح يحدد الداء و يصف
الدواء عبر مقالاته في جريدته الفاروق المعنونة "بجهل المرأة المسلمة نال
الدين من كوارث البدع ما ناله" وقد عددّ لنا في هذا المقال نتائج
الجهل الوخيمة على المرأة نفسها، وعلى عقيدتها، وانعكاس ذلك

على زوجها اقتصاديا، وعلى أبنائها تربويا، حيث يقول: "... وهي في كلّ زيارة تمتص دم زوجها بما تحمل من لذائذ الطعام والشراب تقدّمه قربانا" لوليها"، وتفرقه نذورا على رفيقاتها... وياليت هذا الداء توقف عند هذا الحد إذ لهن الأمر، ولكنه يستفحل و يشتد ليزدرد جيلا كاملا من الناشئة الأبرياء، لأن هذه الأم وجد الجهل في تربيتها رملة ميثاء لن تثمر إلا ثمرة تحمل في أصلها كل عناصر الزيغ والانحراف.... (73).

و يضيف الكاتب محلا للموقف "...لأن الصورة التي ترسم في ذهن الطفل عندما تحمله أمه معها لزيارة الشيخ لن تمحوها الأيام ولو جاهدت، وهكذا ينشأ مخلصا للشيخ محبا له، يقدم له الهدايا حيا، ويتمسح بقبره ميّتا، ويستتجد به كلّما عثرت به قدم. ويتشبع بفكرة أدعياء التصوف الداعية إلى التكاسل والخنوع إلى الاستسلام، وقد علّقها ب صدره هذه الأم الجاهلة يوم علقت بعنقه سلسلة من التمائم والرقى... (74).

وهكذا نستخلص من مقالة عمر بن قدور أن سبب هذا الانحراف العقائدي، يمكن في جهل المرأة الجزائرية الذي أودى بها و بالمجتمع إلى التخلف والانحطاط.

ومن خلال هذه النتائج السلبية لجهل المرأة الجزائرية برزت فكرة

الدعوة إلى تعليم المرأة وذلك منذ أواخر القرن التاسع عشر إلا أنها كانت منقطعة وخائفة في البداية، إلا أنه سرعان ما تبلورت فكرة الدعوة إلى تعليم المرأة بشكل واضح خاصة بعد ظهور النهضة الأدبية في الجزائر، وبعد تأسيس جمعية العلماء المسلمين في ماي 1931 التي دعت إلى حل مشكلة تعليم المرأة في الجزائر والنهوض بها لأنها أصبحت قضية تعني المجتمع كله.

ويعد مصطفى بن خوجة من الكتاب الأوائل - خلال القرن التاسع عشر - الذين رفعوا صوتهم ودعوا إلى تعليم المرأة إذ واجه بآرائه المجتمع. والذين يمانعون في ذلك بالرد عليهم وعلى الاعتقادات الخاطئة التي سيطرت على العقول.

وقد عرف ابن الخوجة باتجاهه الإصلاح، واهتمامه بشؤون المرأة، في كتاباته ونظراته المرتكزة على الدين الصحيح. وآرائه المستمدة من واقع الظروف الاجتماعية الجزائرية في السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر. فكان الكاتب المصلح يرى أن سبب التخلف يرجع كله إلى جهل الرجال والنساء معا " بعلم الدين " المرادف عند غيرنا بـ " التمدن " قائلًا.. " ولو أننا في كل أمر سلكنا سبيل ديننا الكفيل بتشديد بناء النظام الإنساني، لما وصلنا إلى هاته الحال السيئة التي يرثى لها، لكن نبذناه وراء ظهورنا فوقعنا فيما نحن

عليه اليوم من التقهقر ف جمع التقدّمات العصرية...⁽⁷⁵⁾ ، ولكنه يحمل الرجل المسؤولية الأولى باعتباره المتكفل بها، وهو سبب جهلها. وتأخرها في قوله: " ولكن لولا جهل الرجال وغباوتهم لما وصلت النساء إلى هذه موقفه من تعليم المرأة وتثقيفها، لإخراجها من دائرة التخلف والجهل، إلا أننا نلاحظ نظرته أو دعوته إلى التعليم ظلت محدود الأهداف وقد يعود هذا التحديد إلى خشية " ابن الخوجة" من إثارة غضب الناس عليه آنئذ، لما في دعوته تلك من جرأة وتفتح وهذا، طبعاً - قياساً إلى ما كانت عليه أفكار المجتمع الجزائري في أواخر القرن التاسع عشر من جمود وتخلف، ولعل هذا ما جعل " ابن خوجة" يوضح موقفه أكثر حتى لا يساء فهم دعوته وهذا في قوله "... وليس غرضنا من تحريض العزائم على تعليم المرأة أن يبلغن حد الجهابذة من الرجال إنما المراد أن تحصل المرأة على الوجبات الشرعية وحقوق الزوجة، وإتقان الخياطة، والنسج، والتطريز وينبغي أن يكون لها إلمام بمبادئ بعض الفنون بقدر ما تصون به أمور منزلها، من النظافة وحسن الترتيب، وتربية الأولاد، لأن الأم هي المدرسة الأولى للأطفال⁽⁷⁷⁾. كما لم يفته أن يحدد أيضاً نوعية وطبيعة الكتب التي يجب أن تطالعها المرأة في نظرة " الكتب المفيدة المحتوية على تهذيب الشيم، والحض على المحاسن، والمفاخر، وتعريف كل مخلوق بما يجب عليه لخالفه سبحانه، لا

المشتملة على إدارة الأقداح، ومكايد النساء، وأخبار العشاق
..."(78)

والمتمعن في هذه الفنون التي يراها الكاتب ضرورية المرأة كزوجة
وأم يوقن أن نوعية التعليم الذي يشترطه للمرأة يجب أن يكون مفيدا
وعونا لها في حياتها اليومية لا مجرد علوم نظرية يبقى مجالها في طي
الكتب ، أو تنسى بعد الخروج من المدرسة ومن هنا نستنتج أن نظرة
"ابن الخوجة" في دعوته إلى تعليم المرأة واقعية جدا، وإنّ بدت في
الظاهر محدودة الآفاق إلا أنها نظرة تتم بعمق عن وعي الكاتب
بدور المرأة في الحياة العملية الذي يجب أن يكون إيجابيا إذا ما
حصلت المرأة على نوع خاص من التعليم، فهي على حد تعبيره: "لعمري
إن حصول النساء على ملكة الكتابة، والقراءة، وعلى الأدب
والمعارف لهو أجمل شيء لهنّ، وهو أشوق لكل الرجال من الحسن و
الجمال..."(79).

كانت هذه دعوة "ابن الخوجة" لتعليم المرأة الجزائرية في أواخر
القرن التاسع عشر وقد تلت هذه الدعوة دعوات أخرى، أكثر
شمولية ونضجا، وتطورا مع تطور الظروف الاجتماعية والثقافية
نسيبا، إذ طالعنا بعض الصحف⁽⁸⁰⁾ التي عرفت باتجاهها الإصلاحية
في مطلع هذا القرن حيث بدأت بوادر النهضة الأدبية تلوح في الأفق

بمواضيع اجتماعية جديدة عن المرأة تنشر على أعمدة هذه الصحف لمناقشتها من خلال مقالات⁽⁸¹⁾ إجتماعية وأدبية، تختلف قيمتها و أساليبها باختلاف كتّابها، وكانت قضية تعليم المرأة - طبعا - من جملة المواضيع التي طرحت للمناقشة، والأخذ والرد.

ومن بين هذه الدعوات والآراء التي برزت في قضية تعليم المرأة تستوقفنا خاصة دعوة "عبد القادر المجاوي" في مطلع هذا القرن و نظرته المتميزة و الجريئة في الوقت نفسه، لأن الظروف العامة ما تزال غير مهيئة لتقبل مثل آراء المجاوي" في قضية حدود تعليم المرأة و نوعيته إذ يقول: "...فلئن تبقى المرأة جاهلة، خير من أن تتعلم تعلمًا ناقصا، وتترى تربية تافهة فالمرأة التي تظل باقية على سذاجتها الأولى، ولم تتلق شيئا من مبادئ العلوم و الفنون، ولم تمارس القراءة و الكتابة قد يتيسر أن نقنعها بأنها جاهلة، ثم نوصيها بلزوم الرجوع في تربية طفلها إلى رأي من هو أعرف بشؤون التربية... أما التي تعلمت تعلمًا ناقصا ورأى أولياؤها أن لا يعطوها من العلوم سوى قراءة القرآن وكتابة" أبجد هوز" حاسبين أن ذلك القدر كاف، وأنه أليق بها، وأحوط في سلامة دينها، و آدابها، فأن هذه المرأة تصبح بهذا التعليم الناقص، ذات عجب وعناد ولجاج فلا تعود تصغي لمشورة من هو أعلم منها...⁽⁸²⁾.

ثم يعدد "المجاوي" سلبيات وآثار هذا التعليم الناقص قائلاً: "ولا تقف في إفساد تربية ابنها، وتدبير منزلها عند حد... وتحاول تربية أولادها فتبخل بقوانين التربية، وتفتت على المربي اعتدادا بكفاءتها، وأن معرفتها لتلك القراءة الناقصة جعلتها أهلاً لكل شيء، وعالمة بكل شيء وخبيرة بكل شيء أيضاً...⁽⁸³⁾ وفي نهاية المطاف يفضل الكاتب طبعا التعليم الكامل، الشامل الذي يفيد المرأة في حياتها الأسرية مؤكداً على أن المرأة لن تستطيع النجاح في تربية أولادها ما لم "تدرس فن الأخلاق، وعلم النفس... وفن الصحة... وما لم تطالع الكتب التي وضعت في هذين الفنين، كما يمكنها مراسلة المعلم في شؤون تربية الطفل.⁽⁸⁴⁾

وهكذا نستنتج أن دعوة المجاوي مبنية أساساً على وجوب شمولية المعرفة، لدى المرأة حتى تستطيع أن تواجه الحياة بكل مشاكلها، كما نسجل أيضاً مما سبق إجماع الآراء على تعليم المرأة، لأن الجهل له عواقب وخيمة وليس على المرأة فحسب بل على الرجل، والأسرة، والمجتمع ككل، لذا يجب تدارك الأمة هذا الخطر.

كما نسجل أن هذه الآراء الإصلاحية كانت تعكس بحق الإرهاصات الأولية لنهضة أدبية وفكرية واجتماعية سيشهدها هذا المجتمع الجزائري، رغم الظروف الاستعمارية في العقد الثالث من هذا القرن، وهذا بفضل تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي كانت رؤيتها الإصلاحية تتمثل في الإصلاح الشامل للمجتمع الجزائري من جميع جوانبه، وهدفها ترقية الفرد الجزائري عامة، اجتماعيا، وثقافيا، وخاصة تعليم المرأة، والنهوض بها. الذي كان من بين المحاور الأساسية التي أدرجت في تقرير⁽⁸⁵⁾ سجل الجمعية.

وهكذا فبعد أن تعرفنا في هذا المقال على الوضعية السياسية، والاجتماعية، والثقافية للمرأة الجزائرية منذ الاحتلال إلى أوائل هذا القرن، تبين لنا مدى الأثر السلبي الذي خلفته هذه الأوضاع مجتمعة على حياة المرأة الجزائرية في مختلف جوانبها بحيث هذه الإطالة على الوضعية العامة للمرأة الجزائرية تكون قد تشكلت لدينا صورة واقعية عن الأوضاع، والمشاكل التي كانت تحيط بها من كل جانب وذلك منذ بداية الاحتلال إلى بزوغ فجر النهضة الأدبية في الجزائر بقيادة الشيخ العلامة عبد الحميد بن باديس.

الهوامش

- 1 - مونيك بيتر، 1979، المرأة في التاريخ، ترجمة هندي عبودي، طبعة بيروت، ص 6، 26.
- 2 - ينظر، سورة النساء، الآية 10 - 11، كما ينظر سورة الطلاق، الآية 1 و 4 و 3.
- 3 - صحيح البخاري ومسلم، فيما يخص المرأة المسلمة.
- 4 - أنيس المقدسي، 1963، الاتجاهات الأدبية في العالم العربي، طبعة بيروت ص 252، 270.
- 5 - ينظر :
Ali MERAD, 1967, Le Réformisme en Algérie, de 1925 à 1940, Pris, PP, 316, 328.
- 6 - حكمت أبو زيد، (دت) التربية الإسلامية، وكفاح المرأة الجزائرية، دار الطباعة الحديثة، ص، 148.
- 7 - دأبو القاسم سعد الله، 1969، الحركة الوطنية الجزائرية، 1900 - 1930، منشورات دار الآداب، بيروت، ص، 22.
- 8 - مجاهد مسعود، (دت) الجزائر عبر الأجيال، دار الأيتام الإسلامية، ط. 2، ص، 361.
- 9 - Petit Larousse Illustré, 1984, Librairie Larousse. P1193.
- 10 - أحمد الخطيب، 1985، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وأثرها الإصلاحي في الجزائر، طباعة المؤسسة الوطنية للكتاب، ص، 27.
- 11 - الجنرال لامور يسير، ولد هذا الجنرال في مدينة نانت Nantes في 1806 وتوفي في 1865.
- 12 - أحمد الخطيب 1957، الثورة الجزائرية، دراسة وتاريخ، دار العلم للملايين، بيروت، ص، 162.
- 13 - Charles André JULIEN, 1972, Ed, 3ème, Afrique du Nord e, Marche, Paris, P.95.
- 14 - Charles Robert AGERON, 1964, 2ème éd (T1), Histoire de l'Algérie Contemporaine Presse Universitaire de France, p297.
- 15 - ينظر : علال الفاسي، (دت)، الحركات الاستقلالية في المغرب العربي، در

- الطباعة المغربية تيطوان - المغرب ، ص، 6.
- 16 - ينظر : أحمد الجزائري ، 1962 ، كيف دخل الفرنسيون الجزائر ، "وصف شاهد عيان" دار الكتاب الجديدة ، بيروت ، ص، 32.
- 17 - ينظر : عبد الرحمن الجيلالي، 1980 ، تاريخ الجزائر العام ، الجزء 4، ط4 دار الثقافة ، بيروت ، ص، 324.
- 18 - ينظر : ديهي بوعزيز ، 1980 ، ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر و العشرين، ط1، دار البعث ن قسنطينة - الجزائر ، ص، 101.
- 19 - ينظر : د. صالح خرفي ، (دت)، شعر المقاومة الجزائرية ، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ، الجزائر ، ص، 57.
- 20-P.BOYER, 1960, L'Evolution de l'Algérie Médiane de (1830-1956), Librairie d'Amérique ed d'Orient, Adrien Maisson Neuve, P, 273.
- 21- M.FARE, 1868, La femme en Algérie et les Discours Officiels, Typographie, PP, 12-13.
- 22 - أحمد توفيق المدني ، (دت)، ككتاب هذه هي الجزائر ، الآفات التي أصابت الجزائر ، ص ص، 61- 62.
- 23 - أحمد توفيق المدني ، المرجع السابق ، ص، 66.
- 24-C.LALOE, 1910, Enquête sur le Travail des Femmes Indigènes , Alger, Typographie, Adolphe JOURDAN, PP, 20-22.
- 25-LALOE, Op, Cit , pp20-22.
- 26-LALOE, Ibid, PP, 10-90.
- 27-A.PONS, 1830, "La Nouvelle Eglise d'Afrique , ou le Catholicisme en Algérie , en Tunisie et au Maroc", Librairie Louis NAMURA , Tunisie , PP, 123-138.
- 28 - ينظر في ذلك نشاط لافيحري التصيري في منطقة القبائل الكبرى ما بين 1863 - 1870 من خلال : A, PONS, ص، 138.
- 29 - أحمد توفيق المدني ، المرجع نفسه ، ص، 62.
- 30 - ينظر : دركيبي عبد الله ، 1981 ، الشعر الديني الجزائري الحديث (ش.و.ن.ت) الجزائر ، ط1، ص، 27.
- 31 - د. ناصر محمد، 1978 ، المقالة الصحفية الجزائرية ، المجلد الاول و الثاني ، ط(ش.و.ن.ت) ، الجزائر ، ص ص ، 244- 245.
- 32-Jean Paul CHARNAY , 1965, La Vie Musulmane en Algérie , d'après la Jurisprudence de la première moitié du XXéme siècle, Paris , p.65.

- 33- ينظر : CHARNAY,Ibid,PP,65-66
- 34-Rin (Louis),1884,Marabouts et Khouan ,(Etude sur l'Islam en Algérie),Alger ,Adolphe,PP88-89.
- 35-RINN(Louis),Ibid ,PP,65-66.
- 36 -عبد القادر المجاوي ، ولد في تلمسان عام 1848 ، حيث تعلم بها القرآن الكريم ، ثم انتقل إلى تيطوان وفاس في جامع القرويين ، ثم رجع إلى الجزائر ، حيث عين مدرسا ، وإماما وخطيبا بجامع سيدي رمضان 1908م إلى أن توفي في قسنطينة عام 1914م ، من جملة مؤلفاته "المع على نظم البدع " الذي صدر عام 1912 وإرشاد المتعلمين و الدروس النحوية ، وشرح شواهد ابن هشام ، وغيرها وقد حصل على عدة نياشين لمقدرته العلمية و الادبية .
- 37 -ينظر ذلك في المجاوي "المع في نظم البدع"
- 38 -عبد القادر المجاوي ، 1912 ، اللع في نظم البدع ، مطبعة فونطانا الجزائر ، ص،93.
- 39 - عبد القادر المجاوي ، المرجع السابق ، ص104.
- 40 -عبد القادر المجاوي،1910الاخلاق ،جريدة كوكب إفريقيا ثم نشرت في اللع ونظم البدع ،ص ص ، 93 -100.
- 41 -محمد الهادي السنوسي الزاهري ، 1927 ، ترجمة شعراء الجزائر في العصر الحاضر، ط، تونس الجزء 2، ص40.
- 42 -الزاهري محمد السنوسي ، المرجع السابق ، ص ص ، 42 -45.
- 43 -الزاهري ، المرجع نفسه ، ص.45.
- 44 -ينظر في قصيدة الزاهري "زفرات المفؤود..."
- 45 -إمضاء مجهول ، 1914 ، جريدة الفاروق ، "زفرات المفؤود الحيران في حالة الوطن "، العدد 12 ، بتاريخ 1 جانفي .
- 46-Charles TAILLIART, 1925L'Algérie dans la Littérature Française Ancienne ,Paris,PP,125-372.
- 47-P.BOYER,Op.Cit.P.160.
- 48-AGERON;Op.Cit,PP,1-16.
- 49-MELENE ,Abadie FEYGUINE,1905 De l'Assistance Médicale des Femmes indigènes en Algérie ,PP,22-73.

المصادر العدد 3

50-Sakina MESSADJI,1990Les Romancieres Coloniales et la femme Colonisée ,Alger,PP28-29.

- 51 -ينظر في الهامش السابق .
- 52 -د. رابع تركي ، (د.ت) "الشيخ عبد الحميد بن باديس ، فلسفته ، وجهوده في التربية والتعليم" ، (ش.ون.ت) الجزائر ، ص ص ، 92 -93.
- 53 -د. أبو القاسم سعد الله ، 1966 ، دراسات في الادب الجزائري الحديث ، دار الآداب ، بيروت ، ط1 ، ص ص ، 29 -30.
- 54 -د. محمد ناصر ، 1985 ، الشعر الجزائري الحديث ، اتجاهاته ، وخصائصه الفنية ، دار الغرب الاسلامي ، بيروت ، ص ، 16.
- 55 -د. الركيبي عبد الله ، 1981 ، الشعر الديني الجزائري الحديث ، (ش.ون.ت) ، ص ص ، 17 -23.
- 56 -د. أبو القاسم سعد الله ، 1981 ، تاريخ الجزائر الثقافي ، الجزء 1 ، ص ، 340.
- 57 -د. أبو القاسم سعد الله ، 1982 ، محاضرات في تاريخ الجزائر ، بداية الاحتلال (ش.ون.ت) ، ط3 ، ص ، 162.
- 58 -مصطفى بن خوجة ، 1902 ، قوانين وتنظيمات ، الجزء الأول المدني ، مطبعة فونطال ، ص ، 172.
- 59 -أحمد توفيق المدني ، المرجع لسابق ، ص ، 286.
- 60 -د. الركيبي عبد الله ، المرجع السابق ، ص ، 29.
- 61 -د. الركيبي ، المرجع نفسه ، ص ، 29.
- 62 -يقصد بذلك ميليو MILLIOT وأجرون AGERON.
- 63-MILLIOT Louis ,1909 ,La femme Musulmane au Maghreb, »Maroc,Algérie et Tunisie »,Paris ,PP287-290.
- 64 -ينظر ، ، MILLIOT,Ibid, p290.
- 65 -الامير عبد القادر ، 1893م ، ذكرى العاقل ، وتنبيه الغافل ، دار البقطة العربي للتأليف ، ص ص 12 -13.
- 66 -منهم مصطفى بن خوجة ، عبد القادر المجاوي ، عمر بن قنور ومحمد المولود بن الموهوب وغيرهم.
- 67 -أنظر الهامش السابق.

- 68 -مصطفى بن خوجة ، 1895،الاكتراث في حقوق الاناث ، مطبعة فونطانا ، الجزائر
ص ص 91 - 92.
- 69 -بن الخوجة ، الاكتراث في حقوق الاناث ،ص93.
- 70 - القصيدة غير ممضاة، 1914، الزواج التاعس ، جريدة الفاروق ، العدد 50، بتاريخ
27 فيفري 1914.
- 71 - المرجع السابق العدد 50، بتاريخ 27فيفري 1914.
- 72 - دناصر ، المرجع السابق ،ص.673.
- 73 -عمر بن قدور ، 1913 ، بجهل المرأة المسلمة نال الدين من كوارث البدع ما نله ،
جريدة الفاروق ، العدد 38، بتاريخ 28نوفمبر 1913.
- 74 -عمر بن قدور ، المصدر نفسه ، العدد 38.
- 75 -مصطفى بن الخوجة ، المرجع نفسه ،ص ص 63 - 65.
- 76 -بن الخوجة ، المرجع نفسه ،ص 65.
- 77 - بن الخوجة ، المرجع نفسه ، ص 89.
- 78 -بن الخوجة ، المرجع نفسه ، ص91.
- 79 -بن الخوجة ، المرجع نفسه ،ص91.
- 80 -منها جريدة الفاروق الصادرة ما بين 1913 - 1915 ثم 1920 - 1921.
- 81 -منها مقالة بن عزوز معمر -حالة المرأة -جريدة "كوكب افريقيا " العدد 187 في
1910/12/02.
- 82 -عبد القادر المجاوي ، المرجع السابق ، ص ص 27 - 28.
- 83 - عبد القادر المجاوي ، المرجع السابق ،ص، 28.
- 84 - عبد القادر المجاوي ، المرجع السابق ،ص30.
- 85 -راجع سجل جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ص125وما بعدها .